وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة الأولى

المادة تأريخ الأدب العربي قبل الإسلام

عنوان المحاضرة/ الغزل والحكمة

م. د. خلود يوسف عبود

الغزل والحكمة

الغزل: وهو من أبرز الموضوعات الشعرية ، وأعلقها بالقلب وأقربها إلى طبيعة الإنسان ، وقد لقي هذا الموضوع الشعري عناية كبيرة من الشعراء إذ سجلوا فيه عواطفهم وخواطرهم ، تناولوا فيه الحديث عن المرأة فعمدوا إلى ذكر محاسنها وصفاتها ، وذكروا فيه معاناتهم وما يفعله فيهم الشوق والحنين تجاه المرأة

وكثيرا ما يتردد مع الغزل كلمتان هما النسيب والتشبيب، وقد حاول القدماء أن يعطوا لكل كلمة مدلولاً مختلفاً، وعلى الرغم من ذلك فلا فائدة ترجى من التفريق بين الكلمات الثلاث، والأولى اعتبارها من المترادفات وأخف الكلمات وأكثرها شيوعاً واستعمالاً هي الغزل .

والغزل هو لغة العاطفة، صوّر فيه الشعراء أشواقهم نحو المرأة، وما يلقون فيه منها من وصال أو هجر، فشاع بينهم ودارت عليه قصار قصائدهم وطوالها وشارك الموضوعات الباقية .

وقد كان من شغف الشعراء بالغزل أن جعلوه أول موضوع يبتدئون به قصائدهم الطوال، سواء أكانوا يذكرون الغزل مباشرة، أم يذكرون الديار _ التي هي ديار الحبيبة _ لتنقلهم إلى ذكرها والتغزل بها وسرد ذكرياتهم وإياها

والمرأة هي موضوع الغزل، والشاعر في هذا الموضوع الشعري يتناول جمالها، وأول شيء يلفت نظر الشاعر فيتحدث عنه هو جمال وجهها وأعضائها .

وإذا كان الشاعر الجاهلي منصرفاً في غزله إلى الحديث عن المحاسن الجسمية للمرأة، وهو الطابع العام في الشعر العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة، إلا أنهم لم ينسوا الحديث عن الجوانب الخُلقية والنفسية فقد ذكروا المرأة بالحياء، والعفة والتمنّع، ومن ذلك وصف الأعشى لصاحبته هريرة ذاكراً وجهها وفمها، ومشيتها وطيب نشرها ، إذ يقول :

ودّع هريرة إن الركب مرتحلُ وهــل تــطيــق وداعــاً أيها الرجل

غرّاء فرعاء مصقــول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل

كأن مشيتها من بيت جارتها مرّ السحابة لا ريث ولا عجل

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسرّ الجار تختتل

فهي حبيبة إلى الجيران كما هي حبيبة إلى نفس الشاعر، وهي عفيفة كتوم للسر لا تفضح أسرار جيرانها ولا تلوك سيرتهم.

ولعل أحسن من وقف عند صفات حبيبته ووصف عفتها ، وأخلاقها وحياءها الشنفرى الأزدي

في قصيدته التي يقول في أولها:

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودّعت جيرانها إذ تولّت

إلى أن يقول :

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفّت

تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها لجاراتها إذا الهدية قلّت

تحلّ بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالمذمّة حلّت

كأن لها في الأرض نسياً تقصّه على أمها وان تكلّمك تبلت

وهناك طائفة من الشعراء لم تجعل همها عند تناول موضوع الغزل الحديث عن وصف محاسن المرأة وأعضائها والتغني بفضائلها وأخلاقها، وإنما ذهبت إلى تصوير ما يلقاه العاشق المحب من شوق ووجد وهيام، وما يعانيه من ألم الفراق ولوعة البعاد ، وكيف يسهر الليل ويرقب النجوم، ولعل الشاعر (سويد بن أبي كاهل اليشكري) خير من تحدث عن هذا الضرب من الغزل، الذي يصور فيه ما يعانيه من وجد واشتياق، إذ يقول:

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

هيج الشوق خيال زائر من حبيب خفرٍ فيه قدع

آنس كان إذا ما اعتادني حال دون النوم منّي فامتنع

وغير ذلك من قصائد الغزل التي تصور قصص العشاق والمحبين ممن تفيض بأخبارهم كتب الأدب.

الحكمة: الحكمة الجاهلية في أبسط تعريفاتها هي تلخيص الفكر العميق باللفظ الدقيق في دلالته على المعنى ، أو هي تضمين الأبيات القليلة معاني جليلة درج العرب على تسميتها **(جوامع الكلم).**

وهي دليل على رقي عقلية الشعراء وتفكيرهم وتأملهم في قضايا الناس والحياة، وهي ثمرة تجارب طويلة ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم، والماضين ومصائرهم وهي أيضاً تأمل في سعي الإنسان وغايته ونهايته ثم إحساس دقيق بالحياة.

ومما تقدم نجد أن المصدر الأول للحكمة**(تجارب البشر)** تلك التجارب القائمة على تأملهم للماضي والحاضر، واستخلاص العبرة العامة من المواقف الخاصة.

وقد يكون للحكمة مصادر أخرى كـــ (فلسفة القدماء) و(الوحي السماويّ) و(القيم الأخلاقية) و(التشريعات الدينية).

ولما كان العرب أصحاب صدور تحفظ، لا حملة أقلام تنقش، فقد خلّدوا حكمهم في نمطين من الكلام يسهل حفظهما، ونقلهما من صدر إلى صدر ومن لسان إلى أذن . وهذا النمطان هما الأمثال والشعر.

أما المثل فهو جملة في غاية الإيجاز والقوة والعمق. وأما الشعر فكلام موزون مقفى له معنى، سريع العلوق بالذاكرة محبب إلى الأذن، عذب الوقع والإيقاع .

لقد عرفت الحيـــاة الجاهلية كثيراً من الحكماء ذاع صيتهم وعرفت حكمتهم مثل (قس بن ساعدة) و(قصي بن كلاب) و(أكثم بن صيفي). وغيرهم كثير.

أما شعراء الجاهلية الذين ظهرت الحكمة في شعرهم فهم (زهير بن أبي سلمى)، و(لبيد بن ربيعة) و(طرفة بن العبد) و(عبيد بن الأبرص) و(الأفوه الأودي) و(حاتم الطائي) وغيرهم.

إن تأمل أبيات الحكمة عند شعراء عصر ما قبل الإسلام يشير إلى دورانها حول (جدلية الحياة والموت) وما يتصل بها من أسباب ونتائج. ولعل أبرز ما يصور نظرة الشاعر حيال هذه القضية هو تصوره أن الموت سفر ذو اتجاه واحد، بدايته معروفة، ونهايته مجهولة، انه سفر الروح إلى عالم غامض، وفي هذا المعنى يقول عبيد بن الأبرص :

وكلّ ذو غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

أما زهير بن أبي سلمى فان نظرته إلى الحياة كانت نظرة واقعية، نظرة إنسان خبر الحياة وعرف شرورها كما خبر الناس وأخلاقهم ونوازعهم، لذلك ذهب إلى سوق حكمته بأسلوب وعظي حسي ملموس فالموت عنده نصيب الإنسان إن لم يصبه اليوم فغداً، وان أخطأه عاش دهراً فيهرم ثم يدركه الموت فيقول:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمّــر فيهرم

وإذا كانت هذه نظرة زهير إلى الدنيا وقد رضي منها بهذا الواقع المؤلم، فان طرفة ابن العبد قد أعلن تمرده على هذا الواقع ملتمساً لنفسه طريقاً للهروب من هذا الواقع المرير بأن اتخذ القوة والغارة والخمر واللهو واللذة والمجون سبيلاً إلى نسيان شبح الموت وبؤس الحياة فقال:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعّــبد

إن ما يلاحظ على غرض الحكمة تنوع موضوعاته بحسب نظرة كل شاعر فمنهم من يتخذ من التاريخ دروساً وعظات ، متفكراً في مصير الناس وفناء الماضين وزوال النعم . فهذا عدي بن زيد يقول :

من رآنا فليحدث نفسه انه موفٍ قَرْنِ زوالْ

وخطوبُ الدهرِ لا يبقى لها ولما تأتي به صمُّ الجبالْ

ومن الشعراء من يتجه في نفسه وأفكاره إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ مثل لبيد بن ربيعة الذي كان يؤمن بالله وحده لا شريك له ، فهو يعلم أن كل شيء سيؤول إلى الله ، وان كل شيء هالك إلا وجهه ، وكل امرئ صائر إلى يوم الحساب فيقول :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وكل امرئ يوماً سيُعلم سعيُه إذا كُشِّفتْ عند الإله المحاصل

وهناك من الشعراء من كانت لهم نظرات في أخلاق الناس وطباعهم ، والنظر إليها على أنها (طبع فطر عليه الناس)، وان الإنسان عاجز عن مغالبة طبعه، قال زهير:

ومها يكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

ويرى ذو الإصبع العدواني أن من تظاهر بما ليس فيه فالتجارب كفيلة بفضحه والكشف عن معدنه إذ يقول :

كل امرئ راجع يوماً لشيمته وان تخلّق أخلاقاً إلى حين

والى جانب هذه الحكم الرائعة فقد كان للجاهليين نظرة تجاه من عرفوا بينهم برجاحة العقل، فالافوه الأودي يرى أن السياسة والسيادة مناطة بأهل الرشد، فيقول:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة لهم إذا جُهّالهم سادوا

تلقى الأمور بأهل الرشد ما صلحت فان تولوا فبالأشرار تنقادُ

إذا تولّى سراة القوم أمرهم نما على ذاك أمرُ القوم فازدادوا

كما كانت لديهم نظرة تجاه المال وسطوته وسلطانه على البشر ، فالفقر يجعل الإنسان عيالاً على غيره يقول عروة بن الورد :

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا

وصار على الأدنين كلاً وأوشكت صلات ذوي القربى له أن تنكرا